سمير امين ونقد الخطاب السلفي

أ.م.د.حسين عبدالزهرة الشيخ
جامعة بغداد- كلية الآداب / قسم الفلسفة

يعد سمير أمين * مفكراً عربياً سجالياً ، مثيراً للجدل والتفكير ، يملك موهبة الدفع الى التفكير ، نال شهرة واسعة خارج نطاق الوطن العربي ،فهو مفكر معروف عالمياً اكثر منه عربياً . ماركسي ، لكنه ناقد للماركسية الجاهزة ، المستقرة ، المجمدة ، وهو من نمط الماركسيين " المستقلين " الذين نما فكرهم خارج المؤسسات والتنظيمات والتمذهبات .

سمير أمين صاحب منظومة فكرية في (الاقتصاد ، والسياسة ، والاجتماع) ويعد من أبرز المناهضين لتيار العولمة ، والمحاربين للرأسمالية ، ومحاربة الحلول الواحدية الدوجماطيقية تجاه ما يختص بمشكلات العالم الثالث والرابع الخاصة بالتنمية ومحاربة التخلف والاستغلال . ومن أجل الوقوف على بعض المواقف الفكريه لسمير امين ، سنحاول في بحثنا هذا أن نبين موقفه من بعض الاتجاهات الفكريه العربية المعاصرة وبالتحديد الاتجاه السلفي لما لهذا الاتجاه من خصوصية تتمثل بالنزعة الرديكالية التي ترى أن الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي منوط بالرجوع الى فهم القرآن الكريم والسنة النبوية بفهم سلف الأمة وهم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين باعتباره يمثل نهج الإسلام الأصيل والتمسك بأخذ الأحكام من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ويبتعد عن كل المدخلات الغريبة عن روح الإسلام وتعاليمه ، والتمسك بما نقل عن السلف .وبهذا الفهم يصبحون هم من يمثل الإسلام الصحيح وهم وحدهم اصحاب الحقيقة المطلقة وكل ما عداهم في زيغ وضلال ما يستدعي محاربته من أجل ادخاله ضمن حظيرة تفكيرهم ومن هنا منشأ الخطر الذي يمثله الفكر السلفي على الفكر والمجتمع .

نشأة السلفية :

في المعنى الاصطلاحي تنصرف كلمة السلف الى القرون الثلاثة الاولى من عمر الأمة الإسلامية التي تتابعت خلالها اجيال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين .

والتمذهب بالسلفية ، يعني ان للسلف مذهباً خاصاً بهم يعبر عن شخصيتهم ، ويعني ان الذين دخلوا في المذهب هم من دون سائر المسلمين الذين يمثلون حقيقة الإسلام وينهضون بحقه ، فالإسلام يغدو من خلال هذا التصور والفهم هو التابع لهذا المذهب واصحابه ، يسير وراءهم أنى ساروا (١).

ويمكن لنا ان نحدد ان مبدأ ظهور شعار السلفية كان في مصر ، مع ميلاد حركة الإصلاح الديني التي شهدتها مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وهي الحركة التي قادها جمال الدين الافغاني و محمد عبده ، ومن بعدهما رشيد رضا وعبدالرحمن الكواكبي وغيرهما (٢).

ونظراً الى ان كل دعوة اصلاحية ينبغي ان يرتفع لها شعار معين بين الأوساط تتجسد في حقيقته ومعناه ، بحيث ينجذب الناس عن طريقه إليها فكان الشعار الذي رفعه اقطاب هذه الحركة الإصلاحية هو السلفية ، وكان ذلك الشعار يعني الدعوة الى نبذ كل تلك الرواسب التي عكرت على الإسلام طهره وصفاءه (٣).

وفي تلك المدة كان المذهب الوهابي المنسوب الى محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣- ١٧٩٢م) منتشراً في نجد وبعض اطراف الجزيرة العربية . وكان هناك قاسم مشترك بين الدعوتين تمثل في محاربة البدع والخرافات ، لاسيما بدع المتصوفة . فراجت كلمة السلف والسلفية بين اقطاب المذهب الوهابي ولقيت هوى في نفوس كثيرة منهم ، ممن كانوا يتبرمون من كلمة الوهابية، التي توحي بان ينبوع هذا المذهب يقف عند ابن عبدالوهاب . فدعاهم ذلك الى ان يستبدلوا بكلمة الوهابية هذه كلمة السلفية . وهكذا تحولت الكلمة من شعار اطلق على حركة اصلاحية الى لقب ارتبط بمذهب يرى اصحابه أنهم على حق وأنهم دون غيرهم الأمناء على عقيدة السلف (٤).

وتولي التيارات السلفية أهمية بالغة لمبدأ " التوحيد " في العقيدة ولكن يتساءل سمير امين عن الدور الذي يؤديه التوحيد في التمييز بين مختلف مراحل التطور الاجتماعي وفي تقدم قوى الانتاج وما الى ذلك ؟

يجيب سميرأمين بالقول بأن التوحيد لايؤدي بالضرورة الى التقدم العلمي ، او الى تقدم قوى الانتاج والدليل على ذلك هو ان بني اسرائيل ظلوا متخلفين رغم أنهم موحدون ، وبالمقابل هناك شعوب غير موحدة ، كاليابان و الصين ولم يمنع ذلك من تقدم العلوم وقوى الانتاج ، واخلاقيات الانتاج ....الخ . اذن ليس التوحيد شرطاً ضرورياً او كافياً في حد ذاته لتقدم المجتمع (٥).

ويدعو المشروع السلفي الى اقامة الدولة الإسلامية بوصف الدولة عنصراً اساسياً من عناصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، ولكن ادعاء السلفية الإسلامية ان تجربة العودة الى الدولة الإسلامية لم يعط فرصة ، فهو ادعاء غير صحيح . إذ حكمت السلفية في ظل الخلافتين العثمانية والمغربية ، ولم يساعد ذلك على تجاوز الانحطاط ، بل ساهم في التسارع به (٦).

ومن الجدير بالذكر ان نشير هنا الى أن كلمة الدولة الأسلامية كلمة " مبتدعة " ، حديثة ، تعبر عن تأثر الفكر الإسلامي المعاصر بالفكر الحديث السائد . فالإسلام لم يفكر بالدولة ولم تكن قضية إقامة الدولة من مشاغله . فالدولة في الإسلام أحد منتجاته الجانبية الحتمية . فالدين مرتبط بالوحي ، بينما الدولة مرتبطة بالعقل والحنكة والحيلة والخدعة . فلم ترد في القرآن الكريم، ولا في أحاديث الرسول (ص) كلمة دولة ، بل كان دور الإسلام هو تبليغ الرسالة ، والمعاملة الحسنة والتقوى والعدل والإحسان والصدقة ومخافة الله ،فالقرآن لم يعلّم العرب ، علوم السياسة والحرب ، بل علمهم المبادئ التي تتجاوز مسألة تكوين الدول ذاتها . لقد كانت رسالة العرب في الإسلام أكبر من بناء الدولة بكثير ، بل كانت حمل كلمة الحق إلى كل أصقاع الأرض ونشر العدل في كل مكان والجهاد في سبيله (٧) .

ان عجز السلفية عن مقارعة العدو الحقيقي قد يؤدي الى موجات من التعصب إزاء الأقليات . ويبدو ان هذا التعصب يُعزّي البعض إزاء عجزهم من مقارعة العدو الحقيقي ، كما ان " النهضة " السلفية تساهم في تراجع الوعي القومي العربي . وهذا التراجع من شأنه ان يشكل عائقاً امام الوحدة العربية . وامام الانعتاق من طوق التبعية للمراكز .

ويعتقد سمير امين ان من أهم اسباب تأخر الشعوب العربية وعدم دخولها في الحداثة هو العودة الى السلفية والهرب نحو الماضي خوفاً من الوقوع في اشكاليات العولمة والحداثة . فالحداثة في رأي سمير امين ليس سوى ان يصنع الأنسان تاريخه وليست هي التاريخ المحكوم من خلال قوانين موضوعية ظاهرياً . وإنما السلفية نوع

متطرف بميلها نحو الماضي ، والغائها لطموحات البشر في ظل وضع القوانين . ومفهوم الحداثة لديه غير منغلق في نمط نهائي وثابت .(٨)بل هي في تطور متواصل ينفتح على المجهول الذي تدفع حدوده الى الأبعد دون إمكان بلوغها ابداً . فالحداثة لانهاية لها ، بيد انها ترتدي أشكالاً متتالية طبقاً لإجاباتها عن التحديات التي يواجهها المجتمع في لحظة تاريخية معينة (٩).

وبناءً على ماتقدم يزعم أمين ان القول بأن الحداثة قد اصبحت مفهوماً تخطاه التاريخ هو قول لامعنى له من حيث المبدأ . فاذا كان تعريف الحداثة هو ان الإنسان يصنع تاريخه فإن هذه المقولة هي غير قابلة للتجاوز بالمرة إلا أن مراحل الأزمات الكبرى تتم دائماً بميل الى الردة نحو الماضي ، أي قبل الحداثة وبالتالي يقال ان الواقع قد اثبت ان الإنسان لايصنع تاريخه . ولو انه يتصور ذلك ، ويقال ان التاريخ مفروض عليه في واقع الأمر وان هذا التاريخ ناتج قوى خارجة عن ارادته (١٠).

ان نشأة الحداثة - فيما يرى امين – هي نتيجة لتخلي الفكر الفلسفي عن الإرث الميتافيزيقي ، فدخل الإنسان في فلك الحرية ومعها القلق ، وادرك أنه صانع تاريخه ، الأمر الذي يفرض بدوره ضرورة الخيار ، لذالك انطلقت الحداثة عندما اعلن الإنسان انعتاقه من تحكم النظام الكوني ، فهذه القطيعة كانت لحظة تبلور الوعي بالتقدم ، فالتقدم ظاهرة موجودة منذ الأزل ولكن الوعي بالتقدم حديث النشأة ، ومن هنا اصبح مفهوم التقدم وثيق الصلة بمشروع تحرري ، كما اصبح العقل مرادفاً للتحرر و التقدم ، وهذا ما حاولت ايديولوجيا مابعد الحداثة ماتعد بالوصول اليه الذي يقترن بأيديولوجيا الليبرالية المعولمة . فالحداثة هي حركة دائمة وليست منظومة مغلقة محددة نهائياً ، لذلك فالحداثة لانهاية لها وستظل طالما استمرت الإنسانية تعيش (١١).

ان التنازل عن مجال صنع التاريخ يخفي العدول عن تشخيص أسباب الهزيمة والهروب أمام التحديات الحقيقية التي يواجهها المجتمع . والعدول عن واجب الأبداع هومن أجل التغلب على الوضع ، بمعنى آخر هو موقف يعبر عن مآزق . فالدعوة الى هذا النوع من " الخروج من التاريخ " لن ينتج إلا مزيداً من التدهور والتهميش في العالم المعاصر ، ومزيداً من الهزائم القادمة .

ومن جانبنا نذهب الى ما ذهب اليه سمير أمين من أن الإسلام لايتعارض مع الحداثة لكونه دعوة صريحة الى التطور والتقدم وفهم العالم . وأن التراث الإسلامي من القرآن الكريم والسنة النبوية يقف موقفاً ايجابياً من المعرفة . وأن السلفيات الأثنية والدينية وليس الدين الإسلامي هي التي لاتقبل التحولات الكبرى في العالم في ميدان

الفكر . وهذا ينعكس على الثقافة الإسلامية التي لاتزال لاتقبل التطور . فالمشكلة ليست في الإسلام ذاته بل في عدم تحرر النخب الفكرية التقليدية من العوائق المعرفية والرؤى المكبلة للفكر والإبداع . فالسلفية الإسلامية ترى ان الخالق هو المشرع الوحيد وبالتالي على البشرية ان تتنازل عن طموحاتها في صنع القوانين التي تريد ان تحكم بها (١٢) .

السلفية الرديكالية والفهم الخاطئ للتاريخ:

ان الأحساس العميق بالعجز تجاه تضامن الأمم الأوروبية مع الدولة الصهيونية ، وعجز العالم العربي في ظروفه السياسية الراهنة عن ان يتحرر من سيطرة الأستعمار ومن التوسعة الصهيونية والسؤال عن هذا العجز لاشك هو فشل الحركة الوطنية العربية الأصلاحية التي لم تقف عند حدود " الأشتراكية البروقراطية " فتلى هذا الفشل اعادة سيطرة الرأسمالية الكومبرادورية وهي أيضاً ظاهرة الفشل والعجز لاريب . ان كل ذلك ادى الى احساس عميق بالعجز وهو أهم اسباب نهضة المواقف السلفية .

وللنهضة السلفية أثار مهمة بالنسبة للشعوب العربية ، فهي تدفع الى تراجع الوعي القومي العربي وأحلال ستار ديني محله ، ويمكن ان تؤدي الى موجات من التعصب المظلم خاصة إزاء الأقليات . اضافة الى ذلك ان هذه النهضة تجمد التطور في ميدان شؤون العائلة . وربما كانت هذه هي النواة الصلبة في فهم الإسلام ، خاصة ان الشريعة تحكم ميادين الزواج والنسل والأرث ....الخ (١٣).

يشير سمير امين الى وجود ثلاث خرافات يتغذى منها العالم العربي المعاصر والتي تفسر الى حدٍ كبير اسباب المد الإسلامي الحالي والمأزق الذي تقفل فيه هذه الموجة المتجددة للمجتمع العربي . احدى هذه الخرافات تتعلق بموضوع العلاقة بين الدين والدولة ، المقولة التي تقول ان الإسلام في ذاته رافض للعلمانية . وأخرى تدعي ان الانحطاط في التاريخ العربي راجع الى ظروف خارجية بحتة . وترفض بالتالي النظر في نواقص المجتمع العربي نفسه . والثالثة تقع في مجال خصوصيات الإسلام المزعومة . ويرى امين ان هذه الخرافة تقف حائلاً دون السماح بمواجهة تحديات العصر (١٤).

يقول سمير امين ان التمسك بهذه الخرافات يؤدي الى نتائج بالغة الأهمية تتمثل بالآتي : (١٥)

اولاً : يؤدي الى مقولة ان " المجتمع الإسلامي " لايخضع لقوانين مماثلة للقوانين التي تحكم تطور ومصير المجتمعات الأخرى . وهذا بنظر سمير امين تبرير لتقوقع ايديولوجي سلبي قد يؤدي بدوره الى مزيد من الانهزام والاستسلام في ميدان العالم الواقعي . اي مزيد من الاستسلام لهيمنة الأستعمار اردنا ام ابينا . فإن العالم الإسلامي اليوم جزء لايتجزأ من العالم الكلي المعاصر الذي تحكمه العلاقات الرأسمالية .

ثانياً : اقتصار" التراث " على الدين . وهذا الاقتصار موجود بالحرف في كتابات السلفيين مثل سيد قطب . هذا بينما لايمكن على الاطلاق اقتصار " التراث الأوربي " على الدين اي المسيحية . فهذا التراث يشمل أيضاً بالتحديد الفصل بين الدين والشؤون الاجتماعية ومن ثم تحقيق العلمانية وتحرير الفلسفة من اللاهوت ....الخ وليس هناك ما يمنع الإسلام من انجاز خطوة مماثلة . فليس الإسلام في ذاته عقيدة مجمدة بالمرة . بل العكس هو الصحيح . واذا ما تجمد فهم الإسلام فهذا التجمد انعكاس لتخلف المجتمع الإسلامي ولا شئ آخر . إن المجتمع المتخلف يفهم بالضرورة دينه فهماً متخلفاً .

ثالثاً : كثر الكلام عن التراث بشكل مجرد . ويحل هذا الكلام محل العمل الحقيقي من اجل التجديد المطلوب . فهذا الكلام يؤدي دوراً نفسياً مهماً ولو سلبياً إذ يملأ فراغاً ويقوم بديلاً يغني عن النقد الذاتي أمام الهزيمة التاريخية التي تعاني منها حضارتنا ومجتمعنا .

ويرى سمير امين ان الحركات التي تدعو الى التراث والتي تركز على الخصوصيات في اوضاعنا المعاصرة إنما هي حركات لم تقدم الى الآن بديلاً لاستمرار أوضاع التبعية والاستبداد الطبقي . مثال ذلك حركة الأخوان المسلمين . لقد ظلت دعوة هذه الحركة مائعة وملتبسة ، فكررت النداء من أجل الجهاد دون تحديد جهاد ضد من ؟ومن أجل ماذا ؟. فهذا الالتباس سمح باستخدام الحركة من قبل القوى الرجعية والاستعمارية ، ضد حركة التحرر الوطني والاصلاح الاجتماعي (١٦).

ومن هنا يطرح سمير امين السؤال الآتي : هل التيارات التراثية كما هي حالياً هي فعلاً تعبير عن موجة تحرك شعبي أصيل ؟ يجيب بأنه لديه شكوك كثيرة في كون هذه الحركة ذات طابع شعبي أصيل . والراجح انها تعبير عن عقيدة خاصة للبرجوازية الصغيرة وتجاوز هذه العقيدة بالتقوقع والتعصب الديني الذي لن يؤدي الى شيء . ويستنتج سمير امين من ذلك ان نجاحها – الى حد ما – في تجنيد بعض الجماهير انما هو انعكاس وناتج فشل اليسار في تحقيق ما يجب عليه ان يحققه . وهذا الفشل بدوره

في نهاية الأمر حاصل المضمون الطبقي لممارسات اليسار وليس ناتجاً عن " احتقار " هذا الأخير للتراث (١٧).

ويرى سمير امين ان المشروع الذي تطرحه السلفية لايمثل بديلاً حقيقياً قادراً – في الظروف التاريخية – على مواجهة التحدي . ومن ثم فإنه يمثل عرضاً للأزمة وليس حلاً لها . وذلك لأن المشروع السلفي لايتجاوز حدود الميتافيزيقا الوسيطة . بل لايخرج عن إطار طروحات الجناح الأكثر رجعية لهذه الميتافيزيقا . ويقصد سمير امين بالتحديد نظرات الغزالي وصوفية عصر الانحطاط – فهي اي تلك السلفية – تواصل عصر الأنحطاط العربي الإسلامي وليس هي رد فعل ايجابي له . فتقوم ايديولوجيا السلفية على احتقار العقل . بل احياناً تغذي كراهية له . كما انها لاتفهم ما هي العناصر التي قام على اساسها ازدهار الماضي الاسلامي . بل تعد هذه العناصر (والميتافيزيقا العقلانية) انحرافاً مكروهاً وكفراً كما كتبه بالحرف سيد قطب رائد السلفية المعاصرة . فالنتيجة الحتمية لهذه المواقف الرجعية هي اعطاء الأولوية للتطرف في الممارسات الشكلية . هكذا تحولت الطاعة للطقوس وتقديس النص على ظاهره ورد الهوية الى ممارسات تافهة مثل (الزي والذقن ...الخ) أهم مجالات الجهاد المزعوم . وفي هذا الإطار تقوت الأحكام المسبقة الأكثر رجعية ، وهي تراث عهد الانحطاط ، على حساب التأويلات التقدمية التي سادت في عهود الازدهار والتي تكرهها السلفية المعاصرة (وضع المرأة مثلاً) وهنا يسود الجهل التاريخي الذي تغطيه السلفية بالخرافة الكبرى والحنين لعصر ذهبي مفقود . وهو الذي تسميه السلفية " الانحراف والخيانة " (١٨).

ومن هنا يقدم سمير امين أطروحته التي تقوم على فرضية مرونة الأديان وقابليتها للتطور الاجتماعي ، فإن كون المسيحيين قد مروا بمراحل من التطور (الثقافية ، والبرجوازية ، والاشتراكية) بينما المسلمون يرفضونه (يقصد هنا المسيحيين والمسلمين وليس المسيحية والإسلام) يرجع الى ان المجتمع الغربي الأوروبي قد خطا خطوات حاسمة بينما المجتمع العربي توقف في تطوره ، ولا يرجع الى سمات خاصة للعقائد الدينية . يقول سمير امين : " نحن العرب نواجه إذن الآن تحدياً مزدوجاً : تحدي النضال من أجل تقدم الأوضاع الاجتماعية من جانب ، والتحدي على جبهة الفكر من أجل الخروج من مأزق الفكر الوسيط من جانب آخر . ولايقل هذا البعد الثاني الثقافي أهمية عن بعده الأول الاقتصادي والسياسي " (١٩).

ويرى ان جذور المأزق هي في عدم الوعي بأن مواجهة التحدي تتطلب الخروج من آفاق الميتافيزيقا . وطالما لم تفهم هذه الضرورة سيظل التساؤل عن الهوية يطرح في إطار ملتبس لايؤدي الى اي نتيجة .إذ ان الهوية المزعومة تترادف مع التراث وتطرح على انها مناقضة تماماً مع التحديث الذي يرادف بدوره التغريب .

وفي هذا الإطار تفهم هوية الشعوب كما لو كانت عاملاً ثابتاً لايقبل التطور . وهذا حكم يناقضه تماماً واقع التاريخ ، فإن الهوية العربية الإسلامية (والهويات بصيغة الجمع لا المفرد) تطورت عبر التاريخ ، شأنها في ذلك شأن الهويات الأخرى (الأوروبية ...وغيرها) . ان السلفية – فيما يرى سمير امين – تصورت هوية أوروبية هي بدورها ثابتة ، فهي نقيض الهوية الإسلامية المزعومة . هكذا طرح سيد قطب نظرية لااساس لها عن العلمانية . فقد رأى سيد قطب ان العلمانية ناتج خاص للخصوصيات المسيحية ، ليدعي ان الإسلام الذي يتسم بخصوصية متناقضة يتجاهل بالتالي هذه المشكلة . وهنا يقول سمير امين يعطينا سيد قطب صورة عن جهله التام لواقع التاريخ . إذ إن اوروبا الوسيطة لم تتصور هي الأخرى فصل الدين عن الدنيا . فلا يستطيع سيد قطب إدراك الأسباب التي جعلت البنية الميتافيزيقية الوسيطة مماثلة في اوروبا المسيحية وفي دار الإسلام (٢٠).

يرفض سمير امين الحل السلفي الذي يحتكر الحقيقة ، لأن الدين مرن بطبيعته ، إذ تسمح مرونته باستمراره وتكيفه ومن ثم يقبل بوجود تيارات مذهبية متعددة . فالمتمردون القرامطة إسلاميون ، واعداؤهم من الطبقات الحاكمة هم إسلاميون كذلك ، إنما فهمهم للإسلام هو فهم مختلف . كذلك يختلف فهم محمد عزيز الحبابي للإسلام عن فهم سيد قطب له . ويقبل الإسلام مفهوم العلمانية ، فعلي عبدالرازق مثلاً الذي دعا الى فصل الدين عن الدولة ليس أقل إسلاماً من غيره لذلك يرى سمير امين أنه ينبغي الأخذ بما هو تقدمي من تراثنا كابن رشد و ابن خلدون وتطويره لملاءمة ظروف العصر ، وبالمقابل ينبغي رفض كل ما هو رجعي منه كالغزالي (٢١).

ان ايديولوجية السلفية هي ايديولوجية مغلقة ليس من مهامها القيام بثورة ثقافية فالمد السلفي لاينادي بالقيام بالثورة الثقافية المطلوبة. بل على النقيض يبذل أقصى الجهود من أجل ابعاد هذا " الخطر " ويتضح ذلك من عرض مضمون ايديولوجيته التي يرى سمير امين انها تتلخص في النقاط الآتية : (٢٢)

أولاً : إن هناك " تراثاً " عربياً اسلامياً يمكن الحديث عنه بصيغة المفرد ، أي بعبارة اخرى ، ان هناك فكراً عربياً إسلامياً موحداً .

ثانياً : إن السمة الخاصة التي تطبع هذا الفكر هي كون أصله الإيمان الإسلامي ، فهو العنصر الموحد الذي تتوحد حوله الفكر المذكور ، وإن تغلب هذا الطابع الديني يطبع جميع ممارسات النشاط الفكري والمجتمعي .

ثالثاً : إن هذا الفكر الموحد لم يناسب ظروف المجتمع الإسلامي الوسيط فقط ، بل يتضمن على مايكفي من مبادئ أساسية لمواجهة مشاكل عصرنا .

رابعاً : إن هذا الفكر يفوق " الفكر الغربي " فهو إذن أفضل فكراً للأنسانية بجمعها .

خامساً : ان العرب والمسلمين عاشوا مجداً أيام تاريخهم طالما تمسكوا بهذا الفكر ، ثم هجروه وأخذوا يقلدون " الأفرنج " ويتمثلون بأمثالهم . ومنذ ذلك الوقت انحطت أوضاع العرب والمسلمين . ويفهم من ذلك أن العودة للتراث هي شرط ضروري ، وكاف لاستعادة مجدنا المفقود .

وهنا يلفت سمير امين نظرنا الى الأجابة الغريبة التي يقدمها الفكر السلفي المعاصر عن حجة " تفوق الغرب " فيقدم الغرب الاستعماري هنا قياساً مفاده الآتي : الواقع اثبت تفوق الغرب ، اذن المبادئ التي تقوم حضارته عليها متفوقة بدورها . أما الأجابة السلفية فهي الآتية : انتصار الغرب من تدابير حكمة الله مرادها معاقبتنا نحن العرب المسلمين لتخلينا عن مبادئ الإسلام الصحيح (٢٣).

العلمانية لاتتعارض مع جوهر الإسلام :

يرفض سمير امين المقولة التي ترى " ان طابع الدين المسيحي الذي يقال عنه انه قابل من الأصل للفصل بين الدين والدولة ، وعلى عكس ذلك طابع الإسلام الذي يقال عنه انه هو في جوهره تأكيد وحدة الدين والدنيا " . فيرى ان هذه المقولة مزدوجة فتنكر حقيقة التاريخ الأوروبي وكذلك تمنع على نفسها فهم التاريخ العربي الإسلامي نفسه . وتقوم هذه المقولة غير الصحيحة في نظره مانعاً من طرح السؤال الحقيقي وهو لماذا لم تصل المجتمعات العربية الى العلمانية ؟ فالعلمانية لاتتعارض إطلاقاً مع جوهر الإسلام . فالإسلام تكيف في الماضي مع التقدم والتطور وأنشأ دولة بني أمية ثم بني العباس وغيرهم . فليس لدينا شك – يقول سمير امين – أنه سوف يكون قادراً على الاستمرار في التكيف مع ظروف جديدة وإقامة مجتمع اشتراكي . شأنه في ذلك شأن المسيحية التي أيضاً استطاعت ان تتكيف للتطور من العصر القديم الى الرأسمالية والاشتراكية . ولكن السلفيين يرفضون ذلك . فيرفضون التكيف الذي حدث في الماضي ويطلقون عليه تسمية " الانحراف " وكذلك يمنعون على أنفسهم ادراك

التكيف الذي سمح للمسيحية أن تمر ناجحة عبر تطور المجتمعات الأوروبية . وبالنتيجة فإن نظرتهم تنتمي الى اللاهوت وليس الى علم الاجتماع (٢٤).

ويميز سمير امين بين الدين بوصفه عقيدةً والدين بوصفه ظاهرةً اجتماعية تاريخية ، ويزعم ان العلمانية تعتمد على هذا التمييز وليست هي مرادفاً لإلغاء الدين ، فالدين ظاهرة اجتماعية يخضع لقوانيين التطور الذي يمكن كشف أسرارها من خلال البحث العلمي . وينبه الى ان هذا البحث يختلف تماماً عن البحث اللاهوتي ، فالبحث العلمي في مجال الدين بوصفها ظاهرة اجتماعية لايهتم بالثوابت العقائدية ، بل يهتم بالمتغيرات التي تخص دور الدين في مجتمع معين وفي عصر معين . وهنا إذن لا يتحدث الباحث عن الدين في ذاته (الإسلام او المسيحية مثلاً) بل يتحدث عن الناس الذي يعتنقون هذا الدين (المسلمين او المسيحيين لعصر معين في مكان معين) (٢٥).

ويلفت سمير امين النظر الى ان العلمانية ليست " ناتجاً خاصاً " للمجتمع المسيحي جاء إجابة عن خصوصيات المسيحية بوصفه دين ، فالواقع ينقض هذه النظرة التي لا أساس لها في التاريخ . إذ ان الاصلاح الديني قد ابدع بالتحديد كنائس " وطنية " (لوثرية و انجليزية ...الخ) إلا ان هذا الدمج بين الدولة والكنيسة لم يؤد الى نظام ثيوقراطي ، بل لازمته العلمانية . فالعلمانية لم تلغ الإيمان ، بل لعلها قوته وحررته من الشكليات وعنصر الغرض وصفته من الأبعاد الخرافية التي صحبته في الماضي ، فلا يرى المؤمن المسيحي الأوروبي المعاصر تناقضاً بين إيمانه وقبوله نظرية داروين عن اصول الإنسان (٢٦).

ونذهب الى ماذهب اليه سمير امين بان الإسلام في حد ذاته ليس مسؤولاً عن التجمد الماضوي الذي يتسم به الفكر العربي المعاصر ، فهو يقبل التكيف شأنه شأن سائر الديانات ، وذلك وفقاً لمتطلبات التطور الأجتماعي ، ومن دون ان يخسر شيئاً من حيث العقيدة . لذلك يمكنه من حيث المبدأ ان يقبل الثورة الثقافية ، كتلك التي أنهت هيمنة الميتافيزيقا على الفكر الاجتماعي تماماً كما قبلته المسيحية من قبله . أما السبب الحقيقي في عدم حدوث الثورة الثقافية المطلوبة فيكمن في عدم نضوج القوى الاجتماعية المحلية ، وذلك بفعل موقعها الطرفي من المراكز وارتباطها البنيوي بالرأسمالية الأمبريالية . وفي ظل هذه الظروف بالذات يتم طرح الإسلام التقليدي كما تركناه منذ قرون بديلاً للمستقبل (٢٧).

ويميز سمير امين بين تيارات سلفية ثورية تسعى الى تغيير الوضع السائد ، وأخرى سلفية تعمل الطبقات الحاكمة المستقلة على إيقاظها . فهناك حركات سلفية

مماثلة لسلفية الرئيس السابق ريغان والمتمثلة في الدعوة الى " دين السوق " . فعندما تتهدد السيطرة الأمريكية يظهر جانبها السلفي في مظهر يكاد يكون عقيدة دينية مماثلة لفكرة الخميني الى حد بعيد . فقد عدَّ ريغان الدستور الأمريكي الذي لايزيد عمره على قرنين . أشبه بقرآن يمتلك القدرة على الرد على جميع مشاكل الإنسان اليوم وإلى الأبد (٢٨) .

ويرى سمير امين ان إشكالية التخلف والتقدم واللحاق ينبغي ان تطرح في هذا الإطار ، الأمر الذي يستنتج منه ان التقدم و " اللحاق " يصبحان مستحيلين دون اتمام ثورة في الفكر والثقافة تنقل المجتمع من عصر هيمنة الميتافيزيقا الى عصر التحرر من هذه السيادة . ولايقصد سمير امين من وراء هذا القول ان الثورة في الفكر والثقافة يجب ان تسبق إنجاز الثورة في مجال علاقات الإنتاج ونظام حكم المجتمع ، بل يريد القول ان الثورة الاجتماعية دون الثورة الثقافية لن تأتي بالثمار المنتظرة منها . بل لعل الأجهاض هو مصيرها الضروري في هذه الظروف . فالثورة في الفكر والثقافة هي جزء من التغييرالمطلوب من اجل تهيئة الظروف التي التي دونها لايمكن إنجاز التحرر المادي (٢٩) .

ويشير سمير امين الى وجود ابعاد عديدة لهذا الربط العنصري بين الثورتين ،مثال ذلك الديمقراطية ، فليست الديمقراطية تحديداً إلا تحرير الذهن من أحكام مسبقة مهما كانت . اي اعطاء مسؤولية القرار دون تقيد مسبق للشعب . بهذا المعنى تفترض الديمقراطية إلغاء جميع المطلقات ، وإحلال محلها مطلق وحيد هو حرية الفكر في جميع الميادين . ومن ثم تفترض الديمقراطية العلمانية شرطاً لها لا مفر منه ، تفترض فصل شؤون الدين بوصفه عقيدة فردية عن شؤون المجتمع . تفترض إلغاء الدين بوصفه نظام حكم ، ولو نظام ذو طابع أخلاقي قيمي فقط ، وإقامة بديل ذي طابع اجتماعي بحت تحدده الظروف التاريخية (٣٠).

ويعتقد سمير امين ان كثيرين لايدركون تماماً ماهية العلمانية هذه ، ومدى اهميتها من أجل بناء مجتمع ديمقراطي على مستوى تحديات العصر . ولعل السبب في رفضهم العلمانية أنهم يخشون ان تكون العلمانية مرادفاً لمعاداة الدين . ويرى ان هذا الخلط لا اساس له ، بل يرى ان العلمانية من شأنها ان تحرر الدين من استغلال السلطة له . ومن ثم فإن العلمانية من شأنها ان تقوي بُعد القناعة الفردية الحرة من العقيدة ، وذلك من خلال فك الربط بين الدين والسلطة ، وهو ربط يكبل العقيدة بأوضاع الدين بوصفها ظاهرة اجتماعية ذات طابع تاريخي . وفي هذا الإطار تبدو

العلمانية لسمير امين انها ليست سمة خاصة بالمجتمعات المسيحية كما يرى السلفيون . فالمجتمع المسيحي الأوروبي للقرون الوسطى هو الآخر لم يعرف مفهوم العلمانية . بل كان يقوم على مبدأ وحدة الدين والدنيا على غرار ما هو عليه في المجتمعات الإسلامية الآن . إن هذه الوحدة تعطي للدين طابعاً اجتماعياً غالباً على حساب الاقتناع الحر بالعقيدة ، وهو سمة مشتركة لجميع المجتمعات السابقة على الرأسمالية (٣١).

ان نقد سمير امين للنظرة الأوربية المتمركزة على الذات والتي تدعي أن التفوق الغربي ناجم عن خصوصية ثقافية او عرقية ...الخ وأن الأغريق هم أسلاف الأوربيين ، لايختلف في جوهره عن نقده للسلفية . فالغرب يقول : ان على الشعوب الأخرى أن تتخلى عن هويتها وتخضع لتغريب شامل . وسيد قطب يقول : إن الانطلاق من الإيمان والعقيدة الإسلامية هو افضل فكر للإنسانية جمعاء . فهذا تمركز ، وذاك تمركز في الاتجاه المعاكس . والبحث عن بديل ماثل في " خصوصيات " ثقافية اوروبية او اسلامية او هندوسية او زنجية ...الخ إنما هو بديل غير تاريخي ، حتى لو اتخذ طابعاً ثورياً .

وعلى الرغم من كل النقد الذي يوجهه سمير امين للسلفية ،فإنه لايهمل النزعة الميتافيزيقية التي تلازم فكر الإنسان ومشاعره . ففي نظره ينتج ذكاء الإنسان قلقاً خاصاً به ، خارج إطار التساؤلات المرتبطة بالنظام الاجتماعي . لذلك فالإنسان حيوان ميتافيزيقي الطابع ، من حيث تساؤلاته التي تتعدى الطبيعة ، وتستلزم إجابات محددة . وتتولى الأديان مهمة الإجابة عن هذه التساؤلات ، والتي من شأنها ان تسد رمقه الى حد ما . ويعرّف الإجابات التي تقدمها الأديان تعريفاً نفسياً بأنه فعل استلاب ميتافيزيقي ناتج عن كون الإنسان كائناً فانياً . ويعتقد أن هذه التساؤلات الميتافيزيقية لن يلغيها اي تطور اجتماعي . لذلك يتوصل الى ان للعقيدة الدينية مكانة يستحيل ان تلغى ، ويرى ان الإلحاد البرجوازي العلموي الساذج لم يدرك هذه المكانة الدينية واكتفى بالقول بانتماء الإنسان الى الطبيعة .

زد على ما تقدم أن للأديان وظائف أخرى ، تتجاوز الأجابة عن القلق البشري . إذ تؤدي ايديولوجيات الاستلاب دوراً حاسماً في إعادة تكوين المجتمعات البشرية . ويميز سمير امين بين الاستلاب الديني والاستلاب الميتافيزيقي : فالاستلاب الديني هو استلاب ايديولوجي ساد في المراحل التاريخية السابقة على الرأسمالية ، وساهم في اقتطاع فائض القيمة في المجتمعات الخراجية ، اما الاستلاب الميتافيزيقي فينجم

عن شعور الإنسان بضعفه أمام الطبيعة ، وأمام أجله. وأخيراً وفي عصر الرأسمالية جاء الاستلاب السلعي الى حيز الوجود .

الخاتمة

بعد ان بينا بشكل مفصل موقف سمير امين من السلفية لابد لنا من ان نخرج بخلاصة مفادها الآتي :

١- يرجع سمير امين سبب تأخر وتخلف الشعوب العربية الى العودة الى السلفية والهرب نحو الماضي خوفاً من اشكاليات العولمة والحداثة .
٢- يؤكد سمير امين ان للنهضة السلفية آثاراً مدمرة على الشعوب العربية فهي تؤدي الى تراجع الوعي القومي العربي وإحلال ستار ديني محله . وهذا يؤدي الى موجات من التعصب المظلم خاصة أزاء الأقليات .
٣- كما يرى سمير امين ان مشروع السلفية لايمثل بديلاً حقيقياً قادراً في الظروف التاريخية على مواجهة التحدي . ومن ثم فإنه يمثل عرضاً للازمة وليس حلاً لها .
٤- رفض سمير امين الحل السلفي الذي يحتكر الحقيقة ، لأن الدين مرن بطبيعته إذ تسمح مرونته باستمراره وتكيفه ومن ثم يقبل بوجود تيارات مذهبية متعددة .
٥- كما يؤكد سمير امين ان الايديولوجية السلفية هي ايديولوجية مغلقة ليس من مهامها القيام بثورة ثقافية . بل على النقيض من ذلك حيث يبذل أقصى الجهود من أجل إبعاد هذا الخطر .
٦- ان الاسلام في حد ذاته ليس مسؤولاً عن التجمد الماضوي الذي يتسم به الفكر العربي المعاصر ، فهو يقبل التكيف شأنه شأن سائر الديانات ، وذلك وفقاً لمتطلبات التطور الاجتماعي . لذلك يمكنه من حيث المبدأ ان يقبل الثورة الثقافية .
٧- يرى سمير امين ان العلمانية لاتتعارض مع جوهر الإسلام . فالإسلام تكيف في الماضي مع التقدم والتطور وأنشأ دولة بني أمية ثم بني العباس وغيرهم . فلاشك اذاً بان الإسلام يكون قادراً على الاستمرار في التكيف مع ظروف جديدة وإقامة مجتمع اشتراكي .

٨- على الرغم من كل النقد الذي يوجهه سمير امين للسلفية ، فإنه لايهمل النزعة الميتافيزيقية التي تلازم فكر الإنسان ومشاعره . ففي نظره ينتج ذكاء الإنسان قلقاً خاصاً به ، خارج إطار التساؤلات المرتبطة بالنظام الاجتماعي . لذلك فالإنسان حيوان ميتافيزيقي الطابع من حيث تساؤلاته التي تتعدى الطبيعة وتستلزم إجابات محددة .

هوامش البحث

- ولد سمير امين في الصعيد المصري عام ١٩٣١ وانهى دراسته الجامعية في باريس حيث تخرج في معهد الدراسات السياسية عام ١٩٥٤ . ثم التحق بالمعهد الإحصائي الفرنسي عام ١٩٥٥ . حاصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد عام ١٩٥٧ بعد ان كتب أطروحة بعنوان " المترتبات البنيوية لاحتواء الأقتصاديات ما قبل الرأسمالية في النظام الاقتصادي الدولي : دراسة نظرية في الآليات والقوى التي انتجت مايعرف بالأقتصاديات المتخلفة " . بعد الانتهاء من دراسته في فرنسا عاد سمير امين مباشرة الى مصر وعمل في لجنة التنمية الاقتصادية حتى عام ١٩٦٠ . ثم غادر الى جمهورية مالي الاشتراكية عام ١٩٦١ . درس بعد ذلك في جامعة باريس وجامعة بوتير وجامعة داكار . وفي عام ١٩٧٠ عين مديراً لمعهد الأمم المتحدة للتخطيط والتنمية الاقتصادية في أفريقيا حتى عام ١٩٨٠ .

١- فهمي هويدي : أزمة الوعي الديني ، دار الحكمة اليمانية ، صنعاء ، اليمن ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨، ص٣٧.

٢- المصدر نفسه ، ص٣٨.

٣- محمد سعيد رمضان البوطي : السلفية مرحلة زمنية مباركة وليست مذهب اسلامي ، دار الفكر ، سوريا ، دمشق ، الطبعة الرابعة عشرة ، ٢٠٠١ ،ص ٢٣٢.
٤- المصدر نفسه ،ص ٢٣٦.
٥- سمير امين : أزمة المجتمع العربي ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، ص١٨٥-١٨٦.
٦- سمير امين : من نقد الدولة السوفياتية الى نقد الدولة الوطنية ، مركز البحوث العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ ،ص ١٢٤.
٧- مراد زين : الإسلام والحداثة مقاربات في الدين والسياسة . المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٥ ، ص ١٨٠.
٨- سمير امين : من نقد الدولة السوفياتية الى نقد الدولة الوطنية ، ص ٩٣ .
٩- سمير امين : ثقافة العولمة وعولمة الثقافة . دار الفكر المعاصر ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٨ ، ص ٩٣ .
١٠- سمير امين : مناخ العصر (رؤية نقدية) ، دار ابن سينا ، القاهرة ، مصر ١٩٩٩، ص ٤٠ .
١١- سمير امين : ثقافة العولمة و عولمة الثقافة ، ص ٩١ .
١٢- سمير امين : مناخ العصر (رؤية نقدية) ، ص ٣٩ .
١٣- سمير امين : أزمة المجتمع العربي ، ص ١٠٥ .
١٤- المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .
١٥- المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .
١٦- المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .
١٧- المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .
١٨- سمير امين : الأمة العربية : القومية والصراع الطبقي . الجزء الأول ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ ، ص ٢٤٧ .

١٩- المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ .

٢٠- المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ .

٢١- أيوب ابو دية : تنمية التخلف العربي في ظلال سمير امين ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ ، ص ٦٦ .

٢٢- سمير امين : الأمة العربية ، ص ٢٥١ .

٢٣- المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ .

٢٤- سمير امين : أزمة المجتمع العربي ، ص ٢٠٦ .

٢٥- سمير امين : بعض قضايا للمستقبل : تأملات حول تحديات العالم المعاصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١، ص ١٤٢ .

٢٦- سمير امين : الأمة العربية ، ص ٢٢٠ .

٢٧- أيوب ابو دية : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٢٨- سمير امين : أزمة المجتمع العربي ، ص ٩١ ومابعدها .

٢٩- سمير امين : بعض قضايا للمستقبل ، ص ١٤٣ .

٣٠- المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

٣١- المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .